قراءة في كتاب

«تعريف عام بدين الإسلام»

للشيخ علي الطنطاوي

وقفة قصيرة مع قصة هذا الكتاب

بقلم: محمد يوسف التاجي
مصر

إذا كان من شيء يقال بداية قبل الولوج إلى ساحة التناول النقدي لهذا الكتاب فهو حرص شيخنا على أن يجمع فيه بين عطاء الداعية الأديب والمفكر الإسلامي الأريب، الأمر الذي كان يشكل أملاً طالما حرص الشيخ على تحقيقه عبر جهاده الفكري الطويل.. ولنقرأ السطور التالية من مقدمته المعنونة بـ« قصة هذا الكتاب » كي نكتشف حقيقة اهتمامه بتحقيق هذا الأمل، وذلك قوله(١):

« ولما ذهبت إلى العراق سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٣٦م مدرسا للأدب العربي في الثانوية المركزية في بغداد.. وكلفت حينا بتدريس الدين.. جعل الطلاب يسألونني عن كتاب واحد، يفهمون منه الإسلام.. ولا يريدون كتاب تجويد، ولا كتاب توحيد، ولا كتاب تفسير، ولا فقه ولا أصول، ولا حديث ولا مصطلح، بل كتاباً في الإسلام يعرضه كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضه على من يفد عليه من العرب « أو الأعراب » فيفهمونه في يوم واحد.. فلم أكن أجد مثل هذا الكتاب، فكتبت في الرسالة.. وكنت من كتابها عشرين سنة كاملة، من سنة تأسيسها إلى سنة احتجابها، كتبت مقالات أدعو فيها العلماء إلى تأليف هذا الكتاب، وأعدت الدعوة فما استجاب لها أحد إلا شيخنا الشيخ محمد بهجة البيطار، وإذا رجعتم إلى « الرسالة » وجدتم فيها ما كتب ».

وقارىء السطور السابقة سوف يلمس كيف كانت مسألة تأليف هذا الكتاب تشكل هماً غالباً لهذا الداعية المخلص.. ألهمه به خاصة طلابه في مرحلة من أحفل مراحل الإنسان المتلقي للدين الحنيف. حتى لقد بدا ذلك في صورة الأمل الذي لم يجد بداً من التوفر عليه بنفسه، بعدما أعجزته دعوة غيره إليه دون استجابة من أحد إلا شيخه البيطار كما سبقت الإشارة.

منهج الطنطاوي في تناول المفاهيم:

فاذا بدأنا التوجه للقراءة، ألفينا الشيخ يعطينا في مقدمة تالية لا تزيد صفحاتها عن إحدى عشرة صفحة، تحت عنوان «بين يدي الكتاب» ما يشبه المفاتيح للقراءة في فصوله التالية مع ملاحظة أن ما أتى بها منها لا يقل إفادة ولا نفعاً عما جاء بالمتن الأصلي. يعطينا ذلك من خلال ضرب الأمثلة المقنعة، هذا فضلا عن بيان بعض الاستخدامات اللغوية، رأيناه يفعل ذلك في التمهيد لفهم معنى طريق الجنة والنار، أو ما جاء في موضع آخر بلفظ «النجدين»، والذي جاء ذكره بالنص الشريف **«وهديناه النجدين»** أي الطريقين، ثم في التعريف بألفاظ «الدعوة» و«العقل» و«النفس» و«الروح» و«الإنسان» و«الموت» و«الدنيا والآخرة»، ألمَّ بذلك جميعاً وغيره إلمامات متأملة يلوح فيها سمات التأمل النفسي الجامع بين عقل المفكر الواعي وحس الأديب المرهف وضمير المتدين النقي الملتزم.

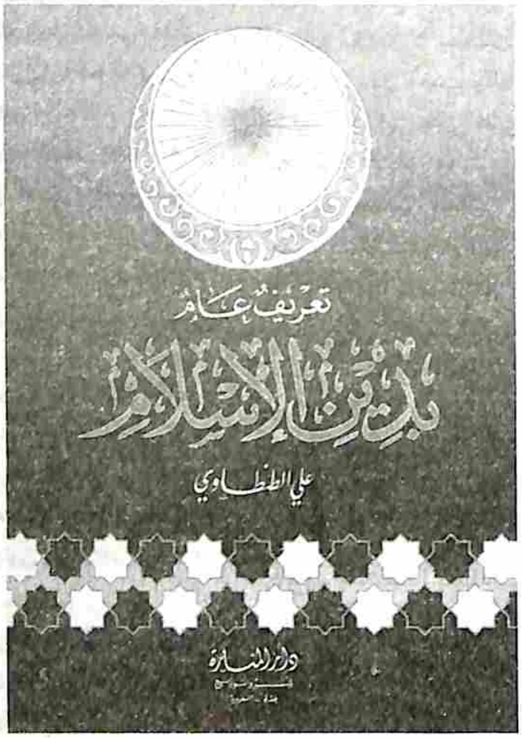

ولعله يحسن التعرض لواحدة من إلماماته بهذه المقدمة التمهيدية، وقد مسَّ بها «الإنسان ويبدو فيها بوضوح موسوعية ثقافته وشمولها. يقول[٢]: الإنسان مخلوق متميز فيه شيء من الملائكة، وشيء من الشياطين، وشيء من البهائم والوحوش. فإذا استغرق في العبادة، وصفا قلبه إلى الله عند المناجاة وذاق حلاوة الإيمان في لحظات التجلي، غلبت عليه في هذه الحالة الصفة الملكية. فأشبه الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فاذا جحد خالقه وأنكر ربه فكفر به، أو أشرك معه في عبادته غيره، غلبت عليه في هذه الحالة الصفة الشيطانية.

وإذا عصف به الغضب، فأوتر أعصابه وألهب دمه، وشد عضلاته، فلم يعد له أمنية إلا أن يتمكن من خصمه فيعضه بأسنانه، وينشب فيه أظافره، ويطبق على عنقه بأصابعه فيخنقه خنقاً ويدعسه دعساً .. غلبت عليه في هذه الحال الصفة الوحشية، فلم يبق بينه وبين النمر والفهد كبير فرق.

وإذا عضه الجوع، وبرح به العطش، وانحصرت آماله في رغيف يملأ معدته، وكأس تبل صداه. أو تملكته الشهوة، وسيطرت على نفسه الرغبة الجنسية فغلا بها دمه، واشتعلت به عروقه، وامتلأ ذهنه بخيالات الشبق وأمانيه غلبت ع في هذه الحال الصفة البهيمية فكان كالفحل الحصان أو ما شئت من أصناف الحيوان.

هذه هي حقيقة الإنسان.. فيه الاستعداد للخ والاستعداد للشر، أعطاه الله الأمرين، ومنحه الع الذي يميز به بينهما، والإرادة التي يستطيع بها يحقق أحدهما. فإن أحسن استعمال عقله في التم وأحسن استعمال إرادته في التنفيذ، ونمى استعدا للخير حتى تخلق به وأنجزه، كان في الآخرة ، السعداء، وإن كانت الأخرى كان من المعذبين!!».

ولعل أحداً لم يفته هذا المنهج التحليلي التام اللغوي لشيخنا في تنا موضوع الإسلام، ذلك التنا الذي رجا في وقت ما يقترب به من طريقة المصط صلوات الله وسلامه عليه، تفهم أصول الدين للمتلة عنه، برغم تفاوت أفهام واختلاف نوعياتهم، وتوص إلى معتنقيه بأبسط صو منذ بعثته صلوات الله وسلا عليه، وإلى آخر الزمان حـ تمتد الحاجة إلى فهم أصو هذا الدين بكل ركن من أرك العالم..

فإذا رحنا ننتقل إ فصول الكتاب التالية تمهد للتجول بين رحابها ألفينا جاءت على النحو التالي:

- دين الإسلام ص ٢٥ - ٣١.
- تعريفات ص ٣٣ - ٣٦.
- قواعد العقائد ص ٣٧ - ٥١.
- الإيمان بالله ص ٥٣ - ٦٣.
- توحيد الألوهية ص ٦٥ - ٨١.
- مظاهر الإيمان ص ٨٣ - ٩٩.
- الإيمان باليوم الآخر ص ١٠١ - ١٢٦.
- الإيمان بالقدر ص ١٢٧ - ١٣٨
- الإيمان بالغيب ص ١٣٩ - ١٤٤.
- الإيمان بالجن والملائكة ص ١٤٥ - ١٥٦.
- الإيمان بالرسل ص ١٥٧ - ١٨٠.
- الإيمان بالكتب ص ١٨١ - ١٨٦.
- خاتمة ص ١٨٧ - ١٩٠.

ولفتتنا طريقة الشيخ في تناول موضوعه، تلك التي جمعت بين ميله للتحديد العلمي القائم على التعريفات، أكاد أقول الاصطلاحية والتي جاءت بثاني فصوله، كما يتضح من البيان السابق وبين التعبير عنها بأسلوب أدبي بليغ شديد الجمال، مستمدا ذلك الجمال من طريقة العرض القائمة على الحوار من جهة، ومن جهة أخرى على أساليب البلاغة العربية استفهامية وتعجبية واستنكارية واستدراكية وغيرها، مهمشاً لها بهوامش تكشف عن ثقافته اللغوية المفيدة بدورها للقارىء.

ولنأخذ مثالاً بسيطاً نتبين منه بعضاً مما أشرنا إليه فهو يرينا بعد الاستفتاح بتساؤل يقول[٣]:

«قلت مرة لتلاميذي : لو جاءكم رجل أجنبي، فقال لكم إن لديه ساعة من الزمن، يريد أن يفهم فيها ما الإسلام؟! فكيف تفهمونه الإسلام في ساعة؟!».

ولما أجابوه مستصعبين تحقيق ذلك في هذا الوقت الضيق، لحاجة الداعية إلى أنواع العلوم المفصلة بهذا الدين كالتوحيد والتجويد والتفسير والحديث والفقه والأصول. لما أجابوه بذلك، وجدناه يذكرهم بأن ما يريده بإثارة هذا السؤال هو إعادتهم إلى منهج الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في التعريف بالإسلام، وذلك بالتركيز على أهم ما يطلب من المدعو إليه .. فقال:[٤] «قلت: سبحانه الله.. أما كان الأعرابي يقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيلبث عنده يوما أو بعض يوم، فيعرف الإسلام ويحمله إلى قومه، فيكون لهم مرشدا ومعلماً ويكون للإسلام داعياً ومبلغاً؟!

وأبلغ من هذا.. أما شرح الرسول صلى الله عليه وسلم الدين كله في حديث «سؤال جبريل» بثلاث جمل تكلم فيها عن الإيمان والإسلام والإحسان.. فلماذا لا نشرحه اليوم في ساعة».

وقد أجاب على سؤال أتى به تاليا وهو: فما الإسلام؟! وكيف يكون الدخول فيه؟!

وأعطى مثالاً لتقريب المراد لما يفعله الإنسان حين يدعى إلى نحلة ما أو جمعية ما - خيرة كانت أو شريرة - سواء في أيهما تجتمع السمات التالية - وساق قوله الذي همشه على إحدى كلماته بما يفيد وهو:

«لكل ذلك مبادىء وأسس فكرية، ومسائل عقائدية، تحدد غايته وتوجه سيره وتكون كالدستور لأعضائه وأتباعه»!

وهنا لا يكون أمام من آمن بهذه النحلة أو تلك الجمعية إلا أن يندرج في عضويتها، ملتزما بما جاء بمبادئها، عاملاً على نشرها والدعوة إليها، لا يخرج عنها قيد أنملة.. وقد جمع ذلك المعنى في شاهده التالي[٥]:

«فالعضوية في الجمعية علم بنظامها، واعتقاد بمبادئها وإطاعة لأحكامها، وسلوك في الحياة موافق لها. هذا وضع عام ينطبق على الإسلام فمن أراد أن يدخل في دين الإسلام عليه أولاً أن يقبل أسسه العقلية، وأن يصدق بها تصديقا جازماً، حتى تكون له عقيدة».

ولعله لم يفتك أن تحقيق معرفة الإسلام لا يقوم في الحقيقة إلا على أساس من القول الصادق والعمل المستقيم، كما يتضح من قوله صلى الله عليه وسلم الذي أهداه لمن سأله «قولاً لا يسأل فيه أحداً بعده» أو في رواية أخرى «غيره» «قل آمنت بالله ثم استقم».. فرتب فعل الاستقامة كعمل إيماني نقي على الإيمان القولي قبله بالله - ومقصود به طبعا الإدلاء بالشهادتين وهو الأمر الذي جاء قوله سبحانه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (١٠/فاطر) فصدقه، غير مقيم للكلم الطيب وحده اعتباراً حتى يأتي العمل الصالح القوي النقي فيرفعه إلى مقام القبول الإلهي. كما لم يفتك كيف انتهى بالمؤمن الأمر ليكون «سلوكاً» لا يشذ مطلقاً عن سواه، وما يزال في ارتقاء معارج القوة والثبات حتى يصير «عقيدة» يستحيل أن يتزحزح عنها مهما أحاطت به الشدائد ونزلت به النوازل شأنه في ذلك شأن الأنبياء الذين يتعاظم نصيبهم من البلاء يليهم الشهداء فالصالحون ثم الأمثل فالأمثل كما جاء بالحديث النبوي الشريف.

ولعله لم يفتك أيضاً دور البلاغة النبوية في التعريف بدين الله وتحبيب ناشديه فيه، وإيصال ما يحقق ذلك لهم من أقرب وأسرع سبيل، موظفاً من حيث الشكل لشتى ضروب التعبير الأدبي ومختلف فنونه، إن في شكل قصة أو مثل، أو في شكل حوار أو غير ذلك، ومن حيث المضمون مستخدماً ماهو مناسب للتوصيل والإقناع كاستخدام أساليب القصر أو التعجب أو الاستفهام أو الإيجاز كما في الحديث الذي كان معنا قبل قليل أو غيرها.

كل ذلك دون أن يفوته التركيز على عنصر «النية الذي به تصبح العادات ذاتها عبادات توثق بين صلات العبد بربه. ذلك أنه ما من دين ربط كل أقوال الإنسان المؤمن وأفعاله بالنيات كالإسلام، حرصاً على توفير خاصية الإخلاص فيه، من منطلق «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا».

منهج الشيخ الطنطاوي في التعريف بالمحاور التي يقوم عليها الإسلام:

ولما كانت غاية الشيخ في تقديم تعريف عام بدين الإسلام - كما وضح من عنوان الكتاب ذاته - تكاد أن يتوافق فيها عمومية هذا التعريف، ببساطة الأسلوب المؤدي إليه، بحيث يمكن به تقديم «الإسلام» إلى ناشديه في أجمل وأيسر صورة ممكنة حتى يتغلغل في ظلمات وأدغال نفوسهم تغلغل نور الصباح، ويجري في عروقهم جريان الماء القراح إلى كبد الظامىء الملتاح.. ويكون في أقصر فترة زمانية ممكنة، ودون أن يكون ذلك مانعاً لمن أدرك قيمته في التزيد من العلم به والفقه بأصوله وعلومه وأحكامه، تلمساً للرقي في مقامات المؤمنين العالية، والتي فيها يتنافس المتنافسون، كما جاءت الإشارة بقوله تعالى: ﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (المطففين: ٢٦) .

وقد اتبع الشيخ منهجاً دقيقاً في التعريف بالمحاور التي يقوم عليها الإسلام، وبدا حريصاً على التزامه في مدى صفحات الكتاب جميعاً، ويمكن إيجازه في النقاط التالية:

* محاولة تقديم أساسيات الإيمان في أوجز عبارة وأبلغها، مما يسهل من جانب التأثر بها بل وحفظها، ويحث من جانب آخر على الالتزام التام بها في كل صغيرة وكبيرة، لما في ذلك من الحرص على إبراز ما يدعو إليه الدين أو ينهى عما يخالفه كما رأيناه يفعل ذلك في تقديم تعريفات لأساسيات العقيدة، ممثلة فيما جاء بكلمات «الإسلام» و«الإيمان» و«الإحسان».. الأمر الذي رأيناه يرصده رصداً يقظاً في شاهده التالي وفيه يقول[٦]:

فإذا آمن الإنسان بالأسس الفكرية للإسلام، وهي التصديق المطلق بالله، وتنزيهه عن الشريك والوسيط، وبالملائكة، وبالرسل، وبالكتاب، وبالحياة الآخرة وبالقدر، ونطق الشهادتين، وصلى الفرائض، وصام رمضان، وأدى زكاة ماله إن وجبت عليه الزكاة، وحج مرة في العمر إن استطاع، وامتنع عن المحرمات المجمع على حرمتها، فهو مسلم مؤمن، ولكن ثمرة الإيمان لا تظهر منه، ولا يحس بحلاوته، ولا يكون مسلماً كاملاً حتى يسلك في حياته مسلك المسلم المؤمن. ولقد لخص رسول الله صلى الله عليه وسلم منهاج هذا السلوك بجملة واحدة، كلمة من جوامع الكلم، ومن أبلغ ما نطق به بشر، كلمة تجمع الخير كله، خير الدنيا، وما في عقبه من خير الآخرة، هي: أن يتذكر المسلم في قيامه وقعوده، وخلوته وجلوته، وجده وهزله، وفي حالاتها كلها، أن الله مطلع عليه، وناظر إليه، فلا يعصيه وهو يذكر أنه يراه، ولا يخاف أو ييأس وهو يعلم أنه معه، ولا يشعر بالوحشة وهو يناجيه، ولا يحس بالحاجة إلى أحد، وهو يطلب منه ويدعوه، فإن عصى - ومن طبيعته أن يعصي - رجع وتاب فتاب الله عليه.

كل ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم في تعري الإحسان «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تر فإنه يراك**».

* توضيح ما عدّه بمثابة المصطلحات لبعـ الألفاظ التي يكثر دورانها على ألسنة العلماء، مما يـ بمعرفتها استقرار المعنى المراد بعقول المتلقين، كحد عن معاني ألفاظ «الشك» و«الظن» و«العلم» بفرعـ «الضروري» و«النظري».

ومن هذا القبيل جاءت صفحات فصله المعنون «قوا العقائد»[٧] وقد جمعها في ثماني قواعد نوجزها فيما يلـ

١- إن كل محسوس لا أشك فيه حتى لا يحكم العـ بالتجربة السابقة وحدها أن ما أحس به وهم وخد حواس. فالعقل يخدع أول مرة حتى يظن مـ السراب ماء، ولكن التجارب اعتباراً من التالية للأو تنجح عادة في إبطال هذا الوهم وهذا الخداع.

٢- إن اليقين كما يحصل بالحس والمشاهدة، يحصـ بالخبر الذي نعتقد صدق صاحبه.

٣- لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا ندركها بحواسنا.

٤- إن الخيال البشري بنوعيه: الخيال المرجع أي الـ نسترجع به صورة ما في الواقع، والخيال المبـ عند الكتاب والشعراء والفنانين لا يستطيع أن إلا بما أدركته الحواس.

٥- إن العقل لا يستطيع أن يحكم، ولا يصح حكمه في الأمور المادية.. أما ما وراء المادة أي عـ الغيب فلا حكم للعقل عليه.

٦- إن الناس جميعاً على تباين عقائدهم وملـ مؤمنهم وكافرهم إذا ألمت بهم شدة لجؤوا تلقا لله الواحد الأحد سبحانه، ونبذوا أشكال الآ الأخرى المعبودة، مما جعل من تعريف (الإنسـ مخلوق متدين) هو أصدق التعريفات التي عر بها الإنسان.

٧- إن الإنسان يدرك بالحدس أن هذا العالم الما ليس كل شيء، وإن وراءه عالماً روحياً مجهـ يدرك منه لمحات تدل عليه. وهذا هو الدليل النفـ على وجود العالم الآخر.

٨- إن الاعتقاد بوجود الحياة الآخرة نتيجة لازمة للاعتـ بوجود الله الأمر الذي لا يكتمل تصديق العقل له حـ تتم به فصول قصة الخلق والبعث جميعاً.

* استخدام كل ما يصلح من العلوم والفلسفـ والآداب في توكيد وتوثيق الفكرة التي يدور عليـ

مستعينا في ذلك بموسوعية ثقافته، تلك التي ألم فيها من كل فن بطرف - كما قيل في واحد من تعريفات «الثقافة» - نرى ذلك في مثل قوله ناقضاً القول بقانون المصادفة، ضارباً مثالا «بالذرة» أدق الكائنات[٨]:

« ومن أعجب العجب، ومن أظهر الأدلة على الله، أن هذا الفضاء بكل ما فيه موجود بصورة مصغرة، بحيث لا يدرك العقل دقتها وصغرها - كما أنه لا يدرك سعة الفضاء ورحبه - موجودة في الذرة.

الذرة التي لا ترى ولا بالمجهر الألكتروني، الذرة التي كان يسميها العلماء والفلاسفة الأقدمون بالجوهر الفرد «الجزء الذي لا يتجزأ» ، الذرة التي قال العلماء: إنه لو صُفَّ أربعون مليوناً منها جنباً إلى جنب كان طولها معشاراً واحداً «سنتي متر».

وسط هذه الذرة فضاء فيه نواة، تدور حولها أجسام صغيرة أكدوا أن الكواكب في الفضاء، ونسبة النواة للذرة، كنسبة حبة القمح للقصر العظيم. والنواة يزيد وزنها وحدها عن وزن «١٨٠٠» من هذه الكهارب، فهل هذا كله من عمل المصادفات؟!».

ومثل قوله أيضا في ضرورة توافر أربع قضايا يسلم بها المسلم تسليما حتى يتم له الإيمان بالله، تلك هي:

« أن الله موجود بلا موجد، وأنه رب العالمين، وأنه مالك الكون المتصرف فيه، وأنه الإله المعبود وحده لا يعبد معه غيره»، وقد ساق دليلاً من سورة «الناس» يؤكد به هذه المفاهيم فقال:

« يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ ﴾ فلماذا كرر لفظ الناس، وعمد إلى الإظهار بدل الإضمار، فلم يقل مثلا «رب الناس وملكهم وإلههم» الذي ظهر لي، كأن ربنا - والله أعلم - يقول لهم هذه ثلاث قضايا متماثلة متكاملة كل قضية مستقلة بنفسها، مع ارتباطها بأختها، فهو «رب الناس» أي خالقهم وحافظهم وهو «ملك الناس» أي مالكهم المتصرف فيهم، وهو «إله الناس» أي المستحق وحده لعبادتهم، ولا يجوز أن يكون له شريك فيها، ومقتضى ذلك أن تصدقوا بالقضايا الثلاث، أو أن تنكروا القضايا الثلاث، فما بالكم تصدقون بالأولى والثانية وترفضون الثالثة». كيف تفرقون بين المتماثلات؟ فتقبلون بعضاً وتأبون بعضا».

والثلاث سواء في الثبوت، لا سبيل إلى التفريق بينهما في الحكم».

فإذا كان الشيخ بدأ شاهده هذا بالإشارة إلى أربع قضايا، ثم ضمنها عند تحليله لسورة الناس، بالإشارة إلى ثلاث منها فقط دون الرابعة، فلعله أراد - وقد أشار إلى ذلك قبلا - أن يدرك المتلقي وحده ارتباط هذه الرابعة بثلاثتها، ارتباط البعض بالكل، والذي لا يصح معه إلا الإيمان بها ضمنا بل أساساً، حتى يكتمل الإيمان بالله سبحانه.

* تنقية وتحديد المراد من المسلم المؤمن حتى يتوافر له من إخلاص العقيدة والعمل بها ما يسلم به عمله - قولاً وفعلاً - ولا يقع في دائرة الإحباط المهدرة له.

رأيناه يفعل ذلك حين اهتم بجميع سمات توحيد الألوهية في عدة نقاط واضحة - مع أن علم التوحيد كعلم متخصص لا يسهل الإلمام به في نقاط قليلة، الأمر الذي رأينا شيخنا يفعله هنا - وذلك بعد التعريف المجمل بالعبادة التي عليها تقوم الصلة بالمعبود سبحانه، حيث قال[١٠]

«والعبادة لها روح ولها جسد، فروحها العقيدة التي دفعت إليها، والغاية التي عملت من أجلها، وجسدها عمل الجوارح من لفظ اللسان وحركات الجسم.. الصلاة مثلا حركات وألفاظ قيام وقعود، وركوع وسجود، وتلاوة وذكر وتسبيح، لكن هذا كله جسد الصلاة، فإن لم يكن الدافع إليه توحيداً صحيحاً وعقيدة سليمة، لم يكن المقصود به امتثال أمر الله، وطلب رضاه، وكانت الصلاة جسدا ميتاً لا روح فيه»!!.

ثم مضى يكشف عما يجعل العقيدة سليمة والتوحيد سليماً، ممثلاً في:

١- أن نستخدم عقولنا للتفكير في خلق الله.

٢- ألا يصرفنا عدم إدراكنا للروابط بين ظواهر الأشياء وبواطنها عن مواصلة التفكير فيها، أو الاعتقاد في عدم جدواها، أو حسبانها خالية من الحكمة﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا** ﴾؟

٣- وأن حب الله والخشية منه هما من أسس التوحيد، وهما روح العبادة.

٤- ضرورة توفير الإخلاص في كل ما يتوجه به إلى الله من قول أو عمل، ولن يكون ذلك كذلك حتى تتوافر المراقبة الجادة لهما، أكاد أقول في كل نفس، وفي كل وقت وحين مصداقا لما جاء بقوله صلى الله عليه وسلم الذي عرف به معنى الاحسان «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

٥- أن يلتزم المؤمن في جلب المنفعة أو دفع المضرة الأسباب التي هيأها الله، والحق أحق أن يتبع.

هذه المنظومة في تقدير الإسلام بتعريفه العام:

فإذا دلفنا إلى نهايات هذه العجالة، وجدنا أنفسنا لا نستحسن ختامها إلا بالوقوف بعض الشيء عند تأملات شيخنا رحمه الله عن الإسلام وكتابه العظيم.. القرآن الكريم، إذ نراه حرص على أن يرصد واقعية الإسلام وإحاطته الشاملة

بالإنسان المسلم في كل مكان وزمان.. ولنقرأ معاً سطوره التالية من «خاتمة» كتابه هذا والتي يقول فيها[11]:

«إن كانت ديانات الناس للمعابد وحدها، فالإسلام ليس للمسجد وحده، ولكن للمسجد وللدار وللسوق، ولقصر الحكم وللحرب وللسلم.. الإسلام يلازم المسلم دائماً، يبين له ما يباح له وما يحرم عليه.. هو معه إن خلا بنفسه، ومعه إن انفرد بأهله وهو معه في تجارته وفي عمله. كل عمل من أعمال المسلم له حكم من الأحكام الخمسة، ومنها الإباحة الأصلية.. وإن كانت الديانات الأخرى عبادات فقط، لا علاقة لها بالسياسة ولا بالعلم، فالإسلام عبادة، وقانون مدني، ونظام إداري، ومذهب خلقي، وهو علم وهو سياسة وهو عمل وهو جهاد. افتحوا أي كتاب من كتب الفقه، وانظروا في فهرسه، تروا هذه الجوانب كلها فيه».

وإذا كان الشيخ بدا لنا في سطوره القليلة السابقة ناظماً منظومة نثرية فائقة في التنويه بالإسلام، وعطائه المبارك المحيط بحياة المسلمين إحاطة شمول ورعاية، كأنه الحارس لهم في أحوالهم جميعاً، فقد رأيناه في مقطع تال من هذه الخاتمة، يوالي بتنويهه بهذا الدين العظيم، ودوره الفائق في خدمة الحياة والأحياء ولنقرأ سطوره التالية التي ساقها رحمه الله في تقدير العمل والعلم[12]:

«وإذا فصلوا بين الدين - الذي هو عبادة فقط - وبين العلم، فالإسلام دين العلم .. أول كلمة نزلت من كتابه كانت «اقرأ»، لم تكن «قاتل، ولا «اجمع المال» ولا «ازهد في الدنيا». و«اقرأ» هذه أول كلمة أنزلت من القرآن، وجاء بعدها ذكر العلم. ما منَّ الله على الإنسان بما أعطاه من مال ولا قوة ولا جاه، بل بأنه علمه ما لم يعلم.

وكل عمل يحتاج إليه مجتمع إسلامي، يكون تعلمه «فرض كفاية» على القادرين عليه.. فهل في الوجود دين - إلا الإسلام - يجعل تعلم الكيمياء والطب والطيران من الفروض الدينية؟!».

ولعله لم يغب عنك إمكانات القوة التي اشتملت عليها تعاليم الإسلام، ممثلة في جانبي العلم والعمل مرتقياً بالثاني ما دام يقوم على أساس متين من الأول، جاعلاً في تعلم كل علم من شأنه النهوض بالحياة، وحركة الأحياء فريضة من فرائض الدين. ويظل شيخنا في منظومته هذه مبيناً دور كل من الإسلام في حركة الحياة والمسلم نفسه في الدفع بهذا الدين إلى أرجاء العالم المفتقد بحق إليه، ولا يكون ذلك إلا بأن يتوافر من الدعاة إليه من كانوا قدوات صالحة، تدعم بأفعالها كل ما جاء بأقوالها عن دينها أليس هذا هو ما تعكسه السطور التالية[13]:

« وهو - أي الإسلام - يريد من المسلمين أن يصدقوا الإيمان، وأن يتبعوا الشرع، وأن يكونوا مع هذا أرقى الأمم، وأقوى الأمم، وأعلم الأمم، وأغنى الأمم، يجمعوا حسنة الدنيا وحسنة الآخرة، وأن يعلم كل مسلم - بعد هذا - أن عليه واجباً آخر هو التعريف بالإسلام، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ؤ يكره الناس على الإسلام «لا إكراه في الدين» بل يعرة عليهم محاسنه حتى يرغبوا فيه، ولا يدعو بلسان مقا فقط، بل بلسان حاله، بأن يكون المجتمع الإسلامي صو مجسمة لمبادئ الإسلام، لا بأن يكون صورة مشوهة لو تنفر منها وتبعد عنها كما هي الحال الآن.. بأن يكو الداعي قوي العقل ليقيم الحجة، عالما بالإسلام ليحس العرض، مثقفا بثقافة العصر ليكلم الناس بلغة العصر وأن يكون لطيف المدخل خفيف الظل، لا فظاً ولا غليظ ولا جافياً عاتيا»، إلى أن يقول فيها بآخر منظومته هذ،

فالإسلام باق لا يزول، والعاقبة له، ولكن إما أ نعود - نحن المسلمين - إلى ديننا فيكون لنا شر، النصر في الدنيا، وثواب الله في الآخرة، وإما أ يستبدل قوماً غيرنا يدخلون في الإسلام، ويتولو الدعوة إليه والدفاع عنه.

ونعوذ بالله أن يستبدل بنا، ونسأله أن يردنا إلى دينن إلى أن يكتب له النصر على أيدينا، وأن يغفر لنا ويرحمنا

أما بعد:

فاذا كان ثمة كتاب يمكن به تمثل شخصية الشي علي الطنطاوي الداعية الفذ الأديب، والمفكر الإسلا، الأريب، فلن يكون سوى كتابه هذا الذي عرضنا له ع الصفحات القليلة السابقة «تعريف عام بدين الإسلام»

جعله الله سبحانه في ميزان حسناته.. ورحمه اا رحمة واسعة. ■

الهوامش:

١- تعريف عام بدين الإسلام فضيلة الشيخ علي الطنطاوي - ط ١٤١٥/١٩٩٥م عن دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا - مصر. المقدمة المعنونة بـ«قصة هذا الكتاب» ص ٨، ١١، ١٢.

٢- من المقدمة الثانية «بين يدي الكتاب» والتي مهد بها الشيخ لأقس كتابه التالية ص ١٨، ١٩.

٣- تعريف عام بدين الاسلام ص ٢٥.

٤- لم يفت الشيخ هنا أن يوضح بقوله في الهامش ص ٢٥ «تجـ النسبة إلى الجمع إذا جرى مجرى العلم فنقول «حقوق دولي و«قوانين عمالية» و«مظاهرات طلابية» و«مسائل عقائدية» كما قا «عالم أصولي» و«رجل أنصاري» و«مائدة ملوكية» و«رسائل إخوا، وهو ما جعلنا نشير إلى أن هوامش الكتاب لا تقل أهمية عن متنه.

٥- تعريف عام بدين الإسلام ص ٢٦.

٦- المصدر نفسه ص ٣٠ - ٣١.

٧- انظر تفاصيل هذا الفصل ص ٣٧ - ٥١.

٨- الكتاب نفسه ص ٦٠ من فصل بعنوان «الإيمان بالله».

٩- جاء بالهامش معرفاً «هذه الأجسام الصغيرة يسمونها الكها «الالكترونيات».

١٠- المصدر نفسه ص ٦٦.

١١- من خاتمة كتابه «تعريف عام بدين الإسلام» ص ١٨٧.

١٢- المصدر السابق نفسه ص ١٨٨.

١٣- المصدر السابق نفسه ص ١٨٩ - ١٩٠.